خليل مطران

هيهات أنسى خليلاً ، صاحبي وأخي أيام تصفو مسودات من العلل

مضى خليل مطران بعدما قضى وذهب الى بارئه في يوم ٣٠ يونيو ١٩٤٩

مضى فانس سعد حديث غضب يخطر ترياقاً للأذان ، وعصت سعه بشاشة جيل محتها العلة العالمية ، ومضت وراءه قلوب أفزعها هول الفجيعة واعتصرتها محنة الفراق

مضى الرجل الأريحي الهمام صاحب القلب الكبير والنفس المتسعة الشيم المترفعة

مضى بأدبه وآدابه بمحامده ومكرماته ببره ووفائه بآخائه وأبوته

مضى في ركب جف به الخلان وقد سحت عيونهم دموعاً غزيرة ودميت قلوبهم أسىً ،

مضى الى عالم الصمت من كان لا يعرف الصمت ، ومضى الى عالم الصمت من كان مشتعل النشاط ملتهب الحيرة

مضى الانسان خليل مطران ، وقليل من يصدق رحيلهم ، بالانسان

عرفت مطران في سنواته الأخيرة أيام تأصلت منه نبلة فؤاد هزالا على هزال ، وضعفاً على ضعف وهشاشة على هشاشة ولكنه كان يعرف كيف يحيل هذا العلل جميعاً الى مدعاة للاستبشار فيقول في رده المستسلم القانع المؤمن : « الله كريم » . وقد رددها مرات ومرات في كل مرة ألمت فيها نازلة ، وكانت تحجبه اليها مرة عن الصباح الذي فيه يضع دقائق كي لا تكون الزيارة ثقيلة على مريض ، فيسعد من الطبيب بعد جولته وتهرى بدنه من وقفة طويلة ، وزميره شتاء لا يبالي كان كل امرئ عليها وطأة الداء يقول قولة تجري على الألسنة في بلدان قرى بيتاً :

« وجسمي صار نفس حمى ونفس ... ونفس الحي باقي الحساب »

كان كل ذكر أماه ، اسم تناوله من جده المشرق ... اه كان اسم كبير أو صغير ،

لا يعرف اللوم ولا القدح ولا يبيح لنفسه ان يجرح أحداً في غيبة أو يشهد منه ، وحاشاه وهو صاحب ذلك القلب الكبير ان يقول قولاً في حق أحد حتى ولو توصب العداء

فكر ذات يوم ان يدوّن مذكراته سطرها السياسي والأدبي ، ومضى يكتب ويحبر ولكنه ما كان ما نفض يديه من أوراقه وتمزيقها ممزقاً مبعثراً . ولما سألته السبب قال : لست أريد ان أغير التاريخ ولست بقادر على أن أكتب الحقيقة كما يغير أن أعرض لنوم صديق فلتحرق المذكرات ولتبدد الخاطرات ولا يقال ذات يوم ان خليل مطران أساء الى زيد من الناس أو تعرّض لعمرو من أصدقائه .

ويوم دعا خليل مطران أن لجنة ألفت لتكريمه ولنشر شعره ودواوينه . قال : ما هؤلاء القوم يشغلون أنفسهم بما لا يستحق منهم مشغلة أو حتى يريدون نشر أوراق لا قيمة لها . حق لها أن تحرق ولا تذاع .

فقد كان مطران متواضعاً في غير كلفة ولا اصطناع يرى شعره النسمين هزيلاً ويستصغر شأن مواهبه التي بها غزا عالم الأدب وغذاه . وكان دأبه أن يزور الاصاغر حتى لا يثقل فيهم روح الطموح ويشجع الشبيبة حتى يخلق أجيالاً من الرجال الناهضين ، ويحث كل ناشيء مادًا له باليمين صاعد العون وباليسار يد التشجيع والتوجيه ، كان مطران مدرسة كثيرة القصد كثيرة الرواد يقبل عليها كبراء إقبالاً ولا يرومون عنها إدباراً ، يغدون معه فيسمرون ويتأدبون ويتعلمون من نبع المعارف الغائر المعين .

ما من قاصد إليه ردّه ، ولا من ساع ببابه صرفه ، وما من مستطلع شيمه خائباً فقد كان مطران أميراً نبيلاً يهب الناس كل ما يستطيع ولو قدر لوهبهم ملكاته ومواهبه ومحصلاته الفكرية ورصيده من المعرفة

واليوم تلفت ذات اليمين وذات اليسار فلا ترى خليل مطران الذي شغل من كل قلب ذكراً أن أن خلا منه غيره فقد أدنت شمس حياته بغيب وآن له أن يلحق بالغائبين من رفقائه الشعراء بعد ما دام فراقهم طويلاً .

معنى الركب يحث الخطى تشيعه الأغنية والقلوب في مصر وتجزع له الأفئدة والقلوب كل مصر ليس خليل مطران ممن يجود الزمان عليه كل أوان ولا هو ممن تتكرر في جيل ولكنه فرد فريد سيظل على الدوام سابقاً في عالم الأدب العربي . وسيبقى ذكره أبد الدهر معطراً بأريج الزكي من الخلال

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وديع فلسطين